المبحث الأول: الحالة السياسية في عصر الإمام الديريني

لم تتعرض دولة الإسلام لأوقات عصيبة مثلما تعرضت له في القرن السابع الهجري؛ حيث دمرت جيوش التتار بقيادة "جنكيز خان" خلافة المسلمين في المشرق الإسلامي وسفكت دماء المسلمين، وتتابع سقوط الدول والمدن الإسلامية كأوراق الشجر في موسم الخريف.

حتى أن كثيراً من مؤرخي الإسلام، حاولوا أن يتركوا الحديث عن هذا الحدث الذي أصاب المسلمين.

فهذا المحدث الجليل ابن الأثير -وهو شاهد عيان على ذلك العصر- يقول في كتابه: "الكامل في التاريخ" في حديث الذكريات: "فأنا أقدم إليه رجلاً وأدخر أخرى،كيف يسهل أن أكتب نعي الإسلام والمسلمين ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك ؟ فياليت أمي لم تلدني قبل هذا! وكنت نسياً منسياً، إلا أنه حثني جماعة من الأصدقاء على تسطير هذا"..[(١)].

فبدأ يكتب الذكريات المريرة والأحداث المؤلمة في مقدمة القصة إلى أن قال: "ولو قال قائل: خلق الله -سبحانه وتعالى- آدم إلى الآن لم تبتلى بمثلها لكان صادقاً".

قلت: فإن كان ذلك فلعل أصدق ما يعبر عن ذلك هو قول الرسول: ﷺ ما روي عن ثوبان رضي الله عنه[(٢)] يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها.فقال قائل: أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير ولكن غثاء كغثاء السيل، وليترعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن"[(٣)] هذا -والحق يقال- حال المسلمين في القرن السابع بعد الهجرة:حيث صارت حياتهم ضعفاً وتفككاً، وهواناً، لف ليلهم وأعتم نهارهم، وضعفا شمل أفرادهم وحكامهم، وأصبح بأسهم شديداً

---

(١) أنظر: الكامل في التاريخ (٣٩٩/١٠).

(٢) ثوبان الهاشمي مولى النبي ﷺ،ولزمه وصحبه،ونزل بعده الشام.مات بحمص سنة (٥٤هـ)، انظر تقريب التهذيب (ص١٦٧).

(٣) أخرجه أبو داود في السنن- كتاب الملاحم (١١١/٤)، والإمام أحمد في مسنده (٢٧٨/٥).

بينهم.

ليس هذا فحسب بل لجأ بعضهم إلى أعدائهم، أعداء العقيدة، وأعداء الدين ليستنصر بهم على أخوة الدين والعقيدة..؟.

ولما رأى الأعداء ما وصل أليه حالهم من التفكك والتباغض أجمعوا العدة وجيشوا الجيوش للقضاء عليهم.

يقول ابن الأثير: "لقد بلي الإسلام والمسلمون في هذه المدة عصائب لم يبتلْ بها أحد من الأمم، ومنها هؤلاء التتر فمنهم من أقبل من المشرق ففعلوا الأفعال التي يستعظمها كل من سمع بها ومنها خروج الفرنج من المغرب إلى الشام وقصدهم ديار مصر، وإمتلاكهم لثغرها –أي: دمياط– واشرقت ديار مصر وغيرها على أن يمتلكوها لولا لطف الله تعالى ونصره عليهم ومنها أن السيف بينهم مسلول والفتنة قائمة"(١).

إنَّ هذا الكلام الذي ساقه ابن الأثير يدل دلالة واضحة على أن المسلمين في تلك الآونة من تاريخهم تعرضوا لثلاث من الهجمات الشرسة:

الأولى: الهجمات الصليبية والتي استمرت في بعض رأي المؤرخين ثلاثة قرون.

الثانية: هجمات التتار الذين خرجوا من أواسط أسيا.

الثالثة: هجمة من داخله بالعداوة المستحكمة بين حكامه وأمرائه.

ولكن ما سجله التاريخ يقرر أن أقدامهم لم تثبت وقلوبهم لم تطمئن واستجاروا من الرمضاء بالنار، وما حدث في الأقطار الإسلامية حدث في مصر نظيره فقد عاصر الإمام الديريني الدولة الأيوبية ودولة المماليك. فقد بسطت هاتين الدولتين نفوذهما على الشام ومصر، وحيث أن "الإمام الديريني" عاصر هاتين الدولتين فسوف أتحدث عن أوضاعها السياسية –بإيجاز– تمهيدا لدراسة حياة المؤلف.

---

(١) انظر: الكامل في التاريخ (١٠/٤٠٠).

الدولة الأيوبية:

مؤسس الدولة الأيوبية القائد الإسلامي الكبير صلاح الدين يوسف الكردي[١]، وكان أحد قواد نور الدين زنكي حاكم الشام ولما استنجد الخليفة العاضد "بنور الدين سنة (٥٦٤هـــ) ضد الفرنج الذين جاءوا إلى مصر بجيش كبير، وحاصروا القاهرة– جهز نور الدين جيشا بقيادة أسد الدين، وابن أخيه صلاح الدين فلما سمع الفرنج بوصولهم إلى القاهرة هربوا ولما توفي العاضد آخر الخلفاء الفاطميين في المحرم (٥٦٧هـــ)، استقل صلاح الدين بحكم مصر نيابة عن نور الدين، فأخذ في إصلاح البلاد، ورفع الظلم عن العباد، فأبطل المكوس وأظهر العدل فأحبه الناس وضجوا له بالدعاء[٢].

ولما توفي نور الدين انفرد صلاح الدين بحكم مصر والشام[٣] وواصل صلاح الدين الفتوحات، فانتصر على الصليبيين انتصاراً عظيما في معركة حطين (٥٨٣هـــ) كما انتصر عليهم في معارك كثيرة واسترد منهم بيت المقدس قلاع كثيرة[٤].

وبعد وفاته في صفر سنة(٥٨٩هـــ) انفرد كل واحدٍ من أبنائه وإخوانه بحكم البلاد.

فكان ابنه العزيز على مصر، وابنه الأفضل على دمشق وابنه الظاهر غازي على حلب، وأخوه العادل بالكرك[٥] والشويك [٦]، والبلاد الشرقية وأخوه سيف الإسلام

---

(١) صلاح الدين الأيوبي:هو يؤسف بن ايوب بن شاذي ابو المظفر، الملقي بالملك الناصر،من اشهر ملوك الاسلام كان ابويه واهله من قرية "دوين" شرق أذربيجان وهم بطن من الروادية من الاكراد، (ت٥٨٩ا) .انظر: الأعلام للزركلي (٥٢٢/٨).

(٢) انظر: النجوم الظاهرة لتغري بردي (٦/ ٨،٧)، حسن المحاضرة (٤/٢).

(٣) بدائع الزهور لأبن إياس (٢٤١/١،٢٤٠).

(٤) انظر: السلوك للمقريزي (٩٣/١-٩٦).

(٥) مدينة تقع في الأردن جنوب عمان على مسافة (١٠٠ كيلو متر) شمال مؤته وبها قرية مؤته حيث يتجمع آلاف الشيعة العراقيين والإيرانيين لممارسة طقوس عاشوراء فيها، بالقرب من ضريح جعفر الطيار، انظر: كناب شمال الحجاز (١٨٧/١).

(٦) قلعة خصيبة في إطراف الشام ببين عمان وإيله قرب الكرك انظر: معجم البلدان (٣٧٥/٣).

باليمن[١].

وبهذا انقسمت دولة صلاح الدين إلى دويلات فأخذ كل حاكم يتربص بالآخر ليسقطه ويأخذ بلاده، فنشبت بينهم الفتن والحروب حتى استقر الأمر لأخيه الملك العادل، وكان قوياً مستقيماً صبوراً سديد الرأي فاستطاع أن يبسط نفوذه على مصر والشام.

فلما استقر له الأمر قسم البلاد بين أولاده، فأعطى المعظم عيسى دمشق، وأعطى موسى الشرق،وأعطى الكامل محمد مصر، وصار هو ينتقل في ممالك أولاده، والعمدة في كل الممالك عليه إلى أن توفي سنة (٦١٥هـ)[٢] فدب النزاع بين أولاده على الملك فتحاربوا كما تحارب أولاد صلاح الدين وإخوانه من قبل، واطمع فيهم الأعداء من الصليبيين والتتار، بل بلغ الأمر ببعضهم أنه يتحالف مع الصليبيين العدو المشترك، ويستعين بهم على الآخر كما فعل الملك الكامل إذ أعطى ملك الفرنج صلحاً سنة (٦٠٦هـ) كي يجد الكامل فرصة لينتزع دمشق من ابن أخيه الملك داوود بن المعظم عيسى[٣].

وكما فعل حاكم دمشق إسماعيل بن العادل إذا أعطى مدينة صيدا وقلعة الثقيف سنة (٦٣٨هـ) ليساعدوه على حاكم مصر ابن أخيه نجم الدين[٤]

وبلغ النزاع بين بني أيوب أن حاول بعضهم قتل الآخر وذلك أن العادل بن الكامل استقل بحكم مصر بعد موت أبيه، فحاول قتل أخيه نجم ا لدين أيوب، لئلا ينازعه على الحكم، وذلك في سنة (٦٣٧هـ) فلم يتمكن من جعل مماليك قصره يخلعوه، واستدعوا

---

(١) انظر: المختصر في أخبار البشر لابي الفداء (١١٩/٣)، النجوم الزاهره (٢٢٧/٦)، بدائع الزهور (٣٥٧/١).

(٢) انظر: المختصر في أخبار البشر) والنجوم (١١٩/٣)، الزاهـرة (٢٢٧/٦)، وبـدائع الزهـور (٢٥٧/١).

(٣) انظر المختصر في اخبار البشر (١١٩/٣)، النجوم الزاهرة (٢٢٧/٦)، بدائع الزهور (٢٥٧/١).

(٤) طبقات الشافعية للسبكي (٢١٠/٨)، والنجوم الزاهره (٢٣٨/٦).

أخاه نجم الدين وبايعوه، فأعتقل أخاه العادل في القلعة، ثم قتله سنة (٦٤٥هـــ).

وهكذا استمر الخلاف والنزاع بين ملوك بني أيوب مما كان سببا في ضعفهم وذهاب دولتهم حيث أنقض عليهم مماليكهم وانتزعوا الملك منهم وذلك أن الفرنج هجموا على دمياط[١] واستولوا عليها بدون قتال حيث هرب أهلها، وكان السلطان نجم الدين أيوب "بالمنصورة" فهي قريبة من دمياط، فغضب وشنق من أعيانها خمسين نفساً ففزع العسكر من سطوته وخافوا واندفعوا للقتال، وكان وقتها مريضا فتوفي في شعبان سنة (٦٤٧هـــ) فأخفت زوجته شجرة الدر[٢]موته واستدعت ولده المعظم نوران شاه من الموصل[٣].

فلما وصل استولى على الحكم وكانت الحرب قائمة فخاض غمارها وقاتل ببسالة وأبلى بلاء حسنا في قتال الفرنج فانتصر عليهم، وقتل منهم ثلاثين ألف وذلك في أول يوم من سنة (٦٤٨هـــ) واستتب له الأمر وأخذ يقرب جماعة ممن حضروا معه من الموصل. وأساء معاملة زوجة أبيه "شجرة الدر" التي احتفظت له بالملك، وأبعد مماليك أبيه فكان ذلك سببا في اتفاقهم مع زوجة أبيه على قتله. فقتل في الثامن والعشرين من محرم سنة (٦٤٨هـــ) وبذلك انتهت دولة بني أيوب[٤].

دولة المماليك:

لما قتل توران شاه اتفق المماليك على تولية شجرة الدر الحكم ومع اشتراك الأمير "أيبك التركماني" معها في إدارة الحكم.

---

(١) دمياط مدينة قديمة بين تنيس ومصر على زاوية بحر الروم المالح مخصوص بالهواء الطيب وعي ثغر من ثغور الإسلام، انظر معجم البلدان (٤٧٢).

(٢) شجرة الدر:بنت عبدالله أم خليل التركيه ست الشمائل كانت من حظايا الملك الــصالح نجــم الدين انظر:البدايه والنهايه (٢١٢/١٣).

(٣) الموصل: مركز محافظة هي. نينوى تقع شمال العراق عثلى ضفاف نهر دجلة،وهي ثاني مدينه في البلاد من حيث السكان بعد بغداد،وسكانها عرب يتحدثون اللهجه الموصليه، وأغلبيتــهم مــن السنه،وينحدرون من خمس قبائل. شمر، الجبور، الدليمي، البقاره، طولها تسع وستون درجــه، وعرضها أربع وثلاثون درجه، انظر: معجم البلدان (٢٢٤/٥).

(٤) انظر: بدائع الزهور لابن إياس (١-٢٨٧ -٢٨٥).

قال ابن إياس: "فلما وقع الاتفاق على سلطتها حضر القاضي تاج الدين ابن بنت الآخر. وبايعها بالسلطة على كره منه. قال الشيخ عز الدين ابن عبد السلام[١]: لما تولت شجرة الدر على الديار المصرية، عملت في ذلك مقامه، وذكرت فيها لماذا ابتلى الله يد المسلمين بولاية امرأة عليهم. وكانت سلطتها يوم الخميس سنة (٦٤٨هـ)[٢]أ. هـ

مما سبق يتضح أن القاضي تاج الدين قد عارض تولية امرأة أمر المسلمين.

وفي هذا رد على بعض الباحثين مثل الأخ الباحث "علي صافي حسين" الذي زعم أن أحداً من علماء الدين لم يبد اعتراضاً على ذلك.

فلو أن الباحث كلف نفسه البحث في كتب التاريخ لما وقع هذا الخطأ التاريخي نتيجة التعجل في إصدار الحكم حيث قال: "وهي إن كانت من المماليك إلا أن بعض المؤرخين يعدون مدة حكمها استمراراً لدولة الأيوبيين، والبعض الآخر يعدها بداية عصر المماليك".

وسواء كانت استمرارا للأيوبيين أو بداية للمماليك فإن الطريف في ذلك هو أن امرأة كانت مملوكة حكمت المسلمين وتولت أمرهم مدة ثلاثة أشهر على وجه التقريب وفي مصر! من كان فيها من أئمة الدين وعلماء الفقه وحفاظ الحديث ؟. ولم يبدي أحد منهم أي اعتراض على تولية شجرة الدر أمر المسلمين[٣].

ولما علم الخليفة العباسي ببغداد المستعصم بالله بتولية امرأة حكم المسلمين أنكر ذلك غاية الإنكار: فلما بلغ ذلك شجرة الدر خلعت نفسها وتولى الحكم مكانها الأمير التركماني، وتزوج بها، ثم دبرت مؤامرة لقتله ، لأنه خطب بنت بدر الدين لؤلؤ حاكم الموصل. فقتل في ربيع الأول (٦٥٥هـ)، وتولى الحكم بعده ابنه وتلقب بالملك المنصور[٤].

---

(١) ستأتي ترجمته

(٢) انظر: تاريخ بدائع الزهور (٢٨٦/١).

(٣) انظر: كتاب ابن دقيق العيد حياته وديوانه. (ص ١٥،٦٤).

(٤) انظر: بدائع الزهور (٢٨٧/١).

وفي سنة (٦٥٦هـــ) سقطت الخلافة العباسية على يد هولاكو وعاث هولاكو في بغداد فسادا فسفك الدماء وقتل الناس، وأتلف الكتب الكثيرة التي كانت تملأ مكتبات بغداد، وخرب البلاد ثم زحف على الشام واستولى عليها واخذ يهدد مصر، فجمع نائب السلطة "قطز" القضاة والعلماء فاستشارهم في أخذ أموال من الشعب ليستعين بها على جهاد التتار.

قال ابن تغري بردي: "فكان الاعتماد على ما يقوله ابن عبد السلام فأفتى بأنه لا يجوز ذلك إلا بشرط أن يؤخذ ما عند الأمراء من الخوائص المذهبة والآلات النفيسة، ويقتصر كل واحد على سلاحه ومركوبه، فإذا لم يكف ذلك جاز أخذ أموال من الشعب بقدر الحاجة".

ونوقش في هذا الاجتماع خلع الملك منصور لأنه لا يستطيع إدارة الحكم في هذه الظروف الحرجة التي تتطلب حاكماً قويا محنكاً، فوقع الاتفاق على تولية الأمير "قطز" الحكم فبايعوه وكان ذلك في ذي القعدة سنة (٦٥٧هـــ) ولما تولى الحكم تلقب بالملك المظفر[١] وأخذ يعد العدة لحرب التتار واستعان بالعلماء في إلهاب حماس الجنود وحثهم على الجهاد، فكون جيشا قوياً روحياً ومادياً، والتقى مع التتار في "عين جالوت"[٢] فقاتلهم ببسالة وانتصر عليهم، وقتل قائدهم، وكثر جيشهم الذي قيل عنه: أنه لا يغلب، وكان ذلك في رمضان (٦٥٨هـــ). وتبع الأمير بيبرس فلولهم حتى أجلاهم من الشام.

ولما رجع المظفر إلى مصر: وثب عليه الأمير بيبرس وجماعة فقتلوه في رجوعه، واستولى بيبرس على الحكم، وتلقب بالملك الظاهر، ولم يبايعه العلماء ومنهم الشيخ العز ابن عبد السلام لأنه كان يعرف أنه مملوك[٣]، وفي عهده استقر حكم المماليك، واكتسب

---

(١) انظر: بدائع الزهور (٢٨٧/١).

(٢) قرية بين بيسان ونبلس حدث فيها معركة في صبيحة يوم الجمعة الخامس عشر من رمضان سنة (٦٥٨ هـــ) بقيادة السلطان قطز سلطان المماليك في مصر بعد أن صـــاح بـــأعلى صـــوته "وا إسلاماه" وانتصر فيها على المغول انظر البداية والنهاية (٣١٦/٤).

(٣) انظر: فوات الوفيات لابن شاكر (٥٩٥/١).

الصبغة الشرعية بمبايعة الخليفة العباسي المنتصر بالله الذي جاء إلى مصر في رجب سنة (٦٥٩هـــ) فلما بويع بالخلافة بايع بيبرس بالسلطنة، وفوض إليه شئون مصر والشام[١].

وبدأت الحروب بين بيبرس والصليبيين سنة (٦٦١هـــ) التي استعاد فيها كثيرا من أرض الشام ومدينة الرملة[٢]، وبعد وفاة الظاهر بيبرس بدمشق (٦٧٦ هـــ) بعد أن قام بجهود كبيرة في تدعيم دولة المماليك والدفاع عنها ضد أعدائها وبخاصة الصليبيين والمغول لم تكد تمضي فترة قصيرة حتى اضطربت أمور الخلافة في مصر بعد أن تتابع عدد من الأمراء من أبناء بيبرس على ملك مصر حتى تم عزل آخرهم سنة (٦٧٨ هـــ).

بعد ذلك أصبحت دولة المماليك بقيادة أحد زعماء البحرية البارزين وكان مقربا من بيبرس وهو" قلاوون"[٣].

وكان على قدر من الذكاء وبعد النظر، وقد أجمع المؤرخون على وصفه السلطان المنصور "قلاوون" بأطيب الصفات وأحلاها، ووصف بأنه "كان رجلا مهيبا شجاعا" عفيفاً كارهاً للأذى.... ولكن ذلك لم يمنع من حدوث ثورات داخلية وخرج عليه بعض الأمراء للتخلص منه[٤].

بعدها انصرف إلى مقاتلة المغول والصليبين الذين هددوا بلاد الشام بين الفينة والأخرى وفي موقعة "حمص" التي دارت بين السلطان" قلاوون "والمغول سنة (٦٨٠هـــ) حلت الهزيمة بهم وولوا الأدبار[٥]، وقد أحرز نصراً مؤزرا، ولم يلبث المسلمون أن استولوا على المراكز التي أخلاها المغول والصليبين[٦].

وأخذ يستعد في مصر والشام للقيام بعمل جريء كبير ضد "عكا" إذا بالسلطان

---

(١) انظر السلوك (١/٤٣٣_٤٣٦).

(٢) انظر: عقد الجمان للعيني حوادث سنة (٦٦٤ هـــ)، (٢٠/٥٤٩).

(٣) انظر المواعظ للمقريزي (٢/٣٣٨).

(٤) انظر:مسالك الأمصار- فضل الله العمري (١٦/٦٥٠).

(٥) انظر: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين (ص٥٦).

(٦) انظر: السلوك (١/٧٥٤)، والمرجع السابق.

يموت فجأة سنة (٦٨٩هـــ) واستمر حكم المماليك على مصر والشام. حتى انتهت دولتهم بموت الملك الصالح صلاح الدين حاجي سنة (٧٨٤هـــ) بعد أن عاشت ما يقرب من قرن ونصف القرن، تولى الحكم فيها خمسة وعشرون سلطانا منهم من لم يتول السلطنة إلا بضعة أيام، أو شهور،ومنهم من طالت مدة سلطنته واستقرت سنوات طوالا[١]، وانتهت دولة المماليك البحريه الذي أنشأها المللك الصالح بديار مصر، بعد أن تفرق الأكراد وغيرهم من العسكر عنه، حتى لم يثبت معه سوى مماليكه فصاروا بطانته المحيطين بدهليزه،وسماهم البحريه لسكناهم معه في قلعة الروضه على بحر النيل[٢].

ثم قامت دولة المماليك البرجيه وسكنوا قلعة بجبل المقطم -وهو ما أعطاهم اسم: البرجيه- وينتسب أوائلهم الى قلاوون وأبنائه وأحفاده[٣].

كان للأحداث السياسية (الحالة السياسية) في القرن السابع الهجري أثر كبير في حياة كثير من العلماء أمثال بن تيمية -والعز بن عبد السلام- شيخ الإمام الديريني، وابن دقيق العيد، فلم تكن نظرتهم سلبية الاتجاه، بل كانوا متفاعلين، متأثرين بها، ومؤثرين فيها، وأبرزت معالم شخصياتهم الفذة من التمسك بالعقيدة،ونصرة الحق، والشجاعة الأدبية، والمخاطرة بالنفس في سبيل إعزاز الدين.

❁❁❁

(١) انظر:الأدب في العصر المملوكي (ص١٨-١٩).

(٢) انظر: السلوك (١/٧٥٤).

(٣) انظر: النجوم الزاهرة (٧/٢٨٧-٢٨٩).

المبحث الثاني: الحالة العلمية

اتضح من مبحث الحالة السياسية في نهاية القرن السادس الهجري، وبداية القرن السابع من الهجرة، أنها كانت مضطربة بسبب الحروب الخارجية والفتن الداخلية، ولم يؤثر ذلك على الحالة العلمية التي نشأ فيها "الأمام الديريني" رحمه الله فقد كانت نشطة وساعد على نشاطها أن حكام العصر كانوا على مستوى من الثقافة العالية، وكانوا غيورين على الإسلام الذي يحاربه التتار في الشرق ويقتلون علماءه ويتلفون كتبه، كما كان يفعل به ذلك الصليبيون في الغرب ولذا فإن الحركة الفكرية تدور حول: "إنشاء المدارس التعليمية" والموسوعات والشروح والمختصرات العلمية والخزائن الكبيرة المملوءة بالكتب والمؤلفات التي لها دور كبير في إثراء الحركة العلمية وتوسيع نطاق المعرفةوالثقافة في ذلك العصر.

وسنتكلم عن كل عامل من العوامل السابقة حتى تكون الرؤية واضحة وبينة.

أولا: المدارس التعليمية:

لقد عرفتها الأمة الإسلامية قبل هذا التاريخ وكانت تؤدي دورها في تقديم علوم الدين والدنيا لطلابها، لذا قصد سلاطين بني أيوب تأسيس المدارس والتقرب بها إلى الله وكسب الثواب ،ابتداء من تولي صلاح الدين الأيوبي الحكم في مصر، فتوسع في إنشاء المدارس ووضع لها النظم الثابتة والقواعد المقررة، وكانت المدارس في ذلك العصر أشبه بجامعات، فقد عين صلاح الدين معيدين بالمدرسة "الناصرية".

كما عين الصالح نجم الدين أيوب معيدين اثنين لكل مدرسة، واعتمد التدريس على طريقة الإلقاء، والتلقين والإملاء، وربما دارت مناقشات بين المدرس وطلابه[١].

وسار على نهج صلاح الدين أخوه الملك العادل في حبه للعلم وتشجيعه، وبناء المدارس فكان ابنه الملك الكامل محبا للحديث وأهله[٢].

---

(١) انظر: حسن المحاضرة (١٥٧/٢)، المقريزي في المواعظ (ص٣٧٤).

(٢) انظر: النجوم الزاهرة (٢٢٧/٦-٢٢٨).

وأنشأ بالقاهرة مدرسة للحديث سنة (٦٥١هـــ) سميت: "بالكامليه" وهي ثاني مدرسة أنشئت للحديث[١].

وكان الملك المعظم عيسى بن العادل: أديباً، نحوياً، حنفياً، متعصباً، وقد صنعف "السهم المصيب" في الرد على "الخطيب البغدادي" فيما تكلم في حق أبي حنيفة، في تاريخ بغداد، وصنف العروض وله ديوان شعر[٢].

وكان يحرضَّ الفقراء على الاجتهاد، والاشتغال بالعلم، وحفظ الكتب، فقد أثر عنه أنه كان يقول: من حفظ نص "الجامع الكبير" في الفقه للكرماني أعطيته مائة دينار، ومن حفظ "الإيضاح" لأبي علي في النحو أعطيته مائتي دينار ووفى لهم بما شرط "[٣].

وهكذا كان ملوك بني أيوب يحبون العلم والعلماء ويقربونهم وقد رأينا منهم المحدث، والفقيه، والأديب والشاعر، وليس منهم أحد إلا وله باع في العلم.

حتى أن نجم الدين أيوب بن الكامل شرع في بناء مدرسة كبيرة في القاهرة سنة (٦٣٩هـــ) تضم أربع مدارس تدرس فيها المذاهب الأربعة[٤].

وعندما جاء المماليك إلى حكم مصر، والبلاد الإسلامية، كانت وسيلتهم كسب رضا الجماهير. التوسع في إنشاء المساجد، والمدارس. فساروا على نهج ملوك بني أيوب في تشجيع العلم وحب العلماء، وإنشاء المساجد والمدارس، والخوانق. لذا كثرت المدارس التي تدرس فيها العلوم الشرعية واللغوية، والمساجد، والجوامع، التي تقام بها حلقات العلم، والدروس.

ومن أهمها: جامع عمرو بن العاص، والجامع الأزهر، وجامع ابن طولون بمصر، والجامع الأموي بالشام[٥]

---

(١) انظر:حسن المحاضرة (٢/٢٦٢).

(٢)انظر: النجوم الزاهرة (٦/٢٦٧).

(٣) انظر: الأدب في العصر الأيوبي (ص٨٠).

(٤) حسن المحاضرة (٢/٢٦٣).

(٥) المرجع السابق.

وفي ظل هذه الحركة العلمية النشطة ترعرع العلم، ووجد طبقة من جهابذة العلماء، -كابن عساكر- ، عبد اللطيف البغدادي ، وسيف الدين الأمدي.

ومن هؤلاء استفاده كثير من العلماء ممن كان له أثر في حياة "الديريني" كالعز ابن عبد السلام وتكونت شخصيته الجامعة بين الخطب ا لوعظية المبتكرة، والتصوف، والتفسير، واللغة[١].

ثانياً: أما عن الشروح، والمختصرات، والموسعات العلمية: فإنه لم يأتي هذا العصر إلا وكانت جلَّ المعارف الإسلامية، وعلوم اليونان، والفرس. قد هيأت ووضعت في موسوعات، وبوِّبت، ونسِّقت.

ففي تفسير القرآن الكريم تم تدوين "جامع البيان في تفسير القرآن" لابن جرير الطبري"، ومثله في علم التفسير "الجامع لأحكام الفرآن " للقرطبي.

والناظر في مؤلفات هذا العصر يلحظ أن الاختصار، والشرح كانا سمتا هذا العصر فأكثر المؤلفات إما اختصار لكتب الأقدمين، وإما شرح لها.

وقد تأثر الإمام عبد العزيز الديريني بهذه الظاهرة لذا نجد قسماً من مؤلفاته عبارة عن مختصرات؛ فقد اختصر"الهداية إلى بلوغ النهاية" لمكي بن أبي طالب، وألف منظومته المشهورة في التفسير، وله: "شرح التعجيز مختصر الوجيز" في الفروع، وله: " المقصد الأسنى في شرح الأسماء الحسنى".

ومن مؤلفات هذا العصر: شرح مشكل الوسيط فروع الشافعية لابن الصلاح (ت٦٤٣هـــ)، ومختصر تاريخ دمشق لأبي شامه المقدسي (ت٦٦٥هـــ)، وشرح صحيح مسلم، والمجموع شرح المهذب للنووي (ت٦٧٦هـــ)، وشرح الورقات لإمام الحرمين الجويني، وإحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام في الحديث لابن دقيق العيد (٧٠٢هـــ).

ومختصر في الأصول، ومختصر في المنطق لأبي الحسن علاء الدين الباجي (ت٧١٤هـــ)[٢].

---

(١) انظر: المرجع السابق.

(٢) انظر: طبقات الشافعية لابن السبكي (٣٤١/١٠).

والإمام السخاوي علي بن محمد (ت٦٤٣هـــ) صنف ضمن الكتب شرح المفصل للزمخشري، وشرح الشاطبيه في القراءات[١].

وسبب شيوع هذه المختصرات، والشروح في هذا العصر. أن العلوم الشرعية قد نضجت وأفحمت بمؤلفات السابقين، ومصنفاتهم. فلم يبق للعلماء في هذا العصر إلا الاختصار، والشرح[٢] ولا يعني هذا أنه لم تظهر في هذا العصر مؤلفات قائمة بذاتها، وفيها تجديد من هذا النوع. بل ظهرت مؤلفات تعد من النفائس مثل ما ألف الإمام أبو محمد بن نجم (ت ٦١٦ هـــ) كتاب "الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة" وهو من أكثر الكتب فوائد في الفروع، رتبه على طريقة الوجيز للغزالي[٣]، وهذا علي بن يوسف القفطي ألف في التاريخ تاريخ مصر ابتدائها إلى ملك صلاح الدين، وعليه كتب أخرى في التاريخ[٤]، وهذا الإمام الديريني وهو من المكثرين في التأليف ألف منظومته الموسومة: "التيسير في علم التفسير". وللعز بن عبد السلام شيخ الديريني كتاب: قواعد الأحكام في مصالح الأنام وهو من أجود ما ألف[٥]. وللنووي كتاب تهذيب الأسماء واللغات. وهكذا نجد هذه المصنفات القائمة بذاتها بجانب المختصرات والشروح التي شاعت في هذا العصر[٦].

ثالثاً: المكتبات أو (خزائن الكتب):

كان للمكتبة في صدر الإسلام مهمة جليلة، وغاية دينية كبيرة تتلخص في تعليم الناس شرائع ربهم وتدريبهم على فقه دينهم.

يقول القلقشندي: "فقد كان للخلفاء والملوك في القديم مزيد الاهتمام، وكمال اعتناء

---

(١) أنظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (١١٧/٥).

(٢) أنظر: ابن دقيق العيد حياته وديوان (ص٦٣).

(٣) انظر: وفيات الأعيان (١١٧/٥).

(٤) انظر: البداية والنهاية (١٤/٥).

(٥) انظر: العز بن عبد السلام د/ إبراهيم الوهبي ص (٤٢).

(٦) المرجع السابق (ص٤٣)، تاريخ الأدب الأيوبي د /علي زغلول (١٤٤-١٤٥).

حتى أقاموا منها العدد الوفير(من أجل ذلك الاهتمام من الملوك، والخلفاء انتشرت في جميع البلدان الإسلامية المكتبات فهذه مكتبة الأزهر الشريف تحتوي على آلاف المجلدات العلمية، والمخطوطات الإسلامية النادرة[١].

ودار الكتب الظاهرية بدمشق والتي نسبت إلى الظاهر بيبرس (ت٦٧٦هـــ).

وذكر صاحب المختصر في التاريخ أن: للفاضل أبو علي عبد الرحيم بن القاضي خزانة تحتوي على ثلاثين ألف مجلد[٢].

ولا شك أن هذه المكتبات التي ضاقت بها الكتب قد ساهمت مساهمة فاعلة في تثقيف العقول، ومد طلاب المعرفة بالزاد في كل علم وفن.

ولقد عكف الإمام الديريني على هذه الكتب، والمؤلفات، واستفاد منها ومن أراء أصحابها وأفكارهم، في التفسير، والعقائد، واللغة، والتصوف[٣] مع ذلك فإن هذا العصر خرَّج مجموعة من العلماء الأجلاء الذين تفخر بهم الأمة الإسلامية أمثال: الإمام النووي، والعز ابن عبد السلام شيخ الإمام الديريني، وابن دقيق العيد، وابن حجر العسقلاني، ودرة العقد الإمام ابن تيمية[٤].

❁❁❁

(١) انظر: صبح الأعشى (٤٦٧/١) ، (٢٤٦/١١-٢٤٧).

(٢) انظر:الجامع المختصر (ص ٣٨).

(٣) انظر الجامع المختصر (ص٣٨).

(٤) انظر عن تلك الفترة التاريخية وما فيها من نهضة علمية –بتصرف-: التفسير الكبير لابن تيميــة تحقيق د/ عبد الرحمن عميرة (٣٥/١).